البطليوسي (1)

الدكتور محمد يوسف موسى

وهذا مفكر متفلسف إسلامي آخر ، لم ينل الحظ الذي كان أهلاً له من ذيوع الاسم وبعد الصيت في تاريخ الفكر الاسلامي ، فقد أغفله مؤرخو هذا التفكير ، كما أغفلوا آخرين كثيراً كان يجب العناية بهم وبنتاج تفكيرهم ، نعني به عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي ، الذي ولد بمدينة بطليوس عام ٤٤٤ هـ ، وتوفي ببلنسية عام ٥٢١ هـ ، وكلتاهما من بلاد الأندلس كما هو معروف .

لقد كان هذا المفكر فقيهاً ، عالماً باللغة بصيراً بالعلوم القديمة ، وله جهد مشكور في ناحية التوفيق بين الدين والفلسفة ، وطريقته في علاج هذه المشكلة جعلته مرضياً عنه من معاصريه . ها هو ذا الفتح بن خاقان يقول عنه في كتابه قلائد العقيان : « وله تحقق بالعلوم الحديثة والقديمة ؛ وتصرف في طرقها القويمة ، ما خرج بمعرفتها عن مضمار مشرع ، ولا نكب عن أصل لسنة ولا فرع » ؛ ويذكر عنه الأستاذ العلامة الشيخ محمد بن زاهد الكوثري ، الحجة في العلوم والدراسات الاسلامية والذي يعيش بمصر هذه الأيام ، بأنه أبان هذه المسائل الفلسفية وكشف عن حقائقها ، إبانة خريت ، مع عنايته ألا يحيد قيد شعرة عن حدود شرع الله[2].

(١) يجب أن نذكر هنا أن الكلام فيما يتصل بوجود الخلاف والوفاق بين الدين والفلسفة ليس مشكلة التفكير الفلسفي في العصر الوسيط فقط ، بل ان هذه المشكلة لا تزال قائمة حتى اليوم لدى كثير من المثقفين المسلمين ، وبخاصة في الأزهر . لهذا لا يعتبر ما كتبت في هذه الناحية حديثاً لا فائدة فيه ، بل هو حديث له دائماً جدته وضرورته ، بل هو حديث يعني كثيراً من علماء الدين وتلامذته الذي لا يزال كثير منهم يرى ما كان يراه أسلافه في العصر الوسيط من وجود عداء بين الدين والفلسفة ، ومن ثم نرى هذا الفريق يحول بين عقله وبين فهم الحقيقة حجاباً كثيفاً يمنع من التفكير الصحيح ومن الافادة من جهود الفلاسفة . قال هؤلاء وأمثالهم نسوق الحديث عن فيه ما فيه ، ولم يمنعه ذلك من أن يكون بصيراً بالفلسفة أيضاً

(٢) مقدمة كتاب الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العالية ص ٤ ، طبعة القاهرة عام ١٩٤٦

ونستطيع أن نقدر بأن تفكير البطليوسي الفلسفي يظهر لنا بوضوح في معالجته مشكلة ما بين الدين والفلسفة من صلات، ولا عجب، فبيان هذه الصلات هو — حتى — معقد الفلسفة الإسلامية وطرافتها. وقد خص البطليوسي هذه الناحية مؤلفاً كاملاً من مؤلفاته العديدة، وهو كتاب الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة الذي ظهر بمصر لأول مرة عام ١٩٤٦ م. وتكاد محاولة التوفيق بين هذين الطرفين، الدين والفلسفة، تقوم على ما يأتي:

أ — تقرير حدوث العالم، وبيان كيف صدر عن الله وحاجته له في حفظه وبقائه موجوداً.

ب — بيان أن الله يعلم نفسه وغيره وكل ما خلق، مخالفاً بذلك الفارابي وابن سينا.

ح — تحبيب الفلاسفة القدامى (اليونان) للمسلمين، بتأكيده أن سقراط وأفلاطون وأرسطو كانوا موحدين، وأنهم في آرائهم من الله حين تتم على حقائقها لم يخرجوا عما تقدره شريعتنا.

د — بيان أن النبي أعلى من كل إنسان آخر، حتى الفلاسفة.

إلى غير ذلك من الآراء التي رأى فيها عوناً للوصول إلى الغاية التي أرادها.

الله والعالم

نجد البطليوسي يذهب إلى نظرية فيض الموجودات من الله باعتباره العلة الأولى لها، وإن كان علة مباشرة لأول موجود وغير مباشرة لما بعده، كما نجد عنده نظرية العقول العشرة، وهذا وذاك على النحو الذي نعرفه من الفارابي وابن سينا. إلا أن البطليوسي، في سبيل توضيح ما يقول، يمثل ذلك لنا بوجود الأعداد عن الواحد، فكل عدد معلول لسابقه لا يوجد إلا بتوسطه، وإن كان الواحد علة لها جميعاً، إذ كان لا يصح وجود الأبعد إلا بوجود الأقرب[1] وهذا معنى ما يقال من أن الواحد علة العلل وسبب الأسباب»[2].

ثم يمضي في التمثيل، تمثيل وجود العالم من الله بوجود الأعداد إلى ما لا نهاية عن الواحد، لينتهي من ذلك إلى حل مشكلات قدم العالم أو حدوثه ومنها وجوده عن مادة أولى قديمة كما يقول الفلاسفة، أو من لا شيء كما يقول الدين، ومنها مشكلة كيف تصدر

(١) كتاب الحدائق ص ٢ — ٨ (٢) الكتاب نفسه ص ٣٥

الكثرة عن الله ، وهو واحد من كل وجه ، بغير تكثر في ذاته . وهنا يقول : وكما أن الأعداد كما اثبتت الوجود من الواحد من غير حركة ولا زمان ولا مكان ، ولم يحتج الواحد في إيجادها إلى شيء آخر غير ذاته ، فكذلك حدوث الموجودات عن الباري تعالى ، بغير حركة وبغير زمان وبغير مكان وبغير أدوات ، ومن غير أن تحتاج في إيجادها إلى شيء غيره . وكما أن الواحد لا يوصف بأنه تقدم الأعداد بالزمان ، ولا يبطل ذلك أن تكون الأعداد محدثة عنه ، فكذلك الباري لا يوصف بأنه تقدم العالم بالزمان ولا يبطل أن يكون العالم محدثاً عنه . وكما أن الواحد لا يتغير عن الوحدانية بكثرة ما حدث من الأعداد عنه ولم يوجب ذلك تكثراً في ذاته ولا استحالة في جوهره ، فكذلك حدوث العالم وكثرته لا توجب تغير الباري في وحدانيته ولا تكثراً في ذاته »[1] .

وكذلك يمضي في التمثيل ليصل الى أن العالم محتاج في وجوده ودوامه لوجود الله ، فلو ارتفع لارتفع ، وأن الأمر ليس بالعكس فلو ارتفع العالم لم يرتفع الله ، كما هو الحال بالنسبة للواحد والأعداد الموجودة به . ومعنى هذا ، أن وجود الله وجود مطلق لأنه لا يحتاج في وجوده الى غيره ، ووجود الموجودات كلها وجود مضاف لأن وجودها مقتبس من وجوده وفائض عنه[2] . أو بعبارة أخرى ، إن سريان الوحدة من الباري تعالى : التي بها قوامه وتميزه عمن سواه للأشياء هو الذي كونها ، وأفاض الوجود على مراتبها وصيّر بعضها عللاً لبعض ، وهو تعالى علة وجود الجميع ، ولذلك سموه علة العلل والفاعل المطلق والفاعل بالحقيقة ، لأن فعل غيره إنما هو فعل بالمجاز[3] » .

بهذا ، في هذه الناحية ، يرى البطليوسي أنه وفق بين الشريعة والفلسفة ، وذلك بالقول بالله الخالق للعالم من لا شيء ، وإن كان ذلك بطريق العلية المباشرة لأول موجود وغير المباشرة لسائر الموجودات الأخرى . وكذلك بالقول بأن حدوث العالم عن الله لا يقتضي تقدم الله عن العالم بالزمان كما هو الأمر بالنسبة للواحد والأعداد الموجودة به . وهذا ما لا يستقيم أن يقول بخلافه ، ما دام الله هو العلة الأولى لوجود العالم ، والعلة لا تتقدم بالزمان على معلولها كما هو معروف ومسلم عقلياً ومنطقياً .

علم الله

في هذه المسألة نجد البطليوسي ينتقد من ذهب من فلاسفة المسلمين إلى أن الله لا يعرف غيره كالفارابي مثلاً ، أو أنه يعرف كل شيء ولكن على نحو كلي لا تفصيل فيه كابن سينا

(١) كتاب الحدائق ص ٣٦ — ٣٧ (٢) الكتاب نفسه ص ٣٦ (٣) الكتاب نفسه ص ٣٧ — ٣٨

مثلاً ، بمعنى أنه يعلم الكليات لا الجزئيات ، كابن سينا مثلاً ، مستندين الى قول الفلاسفة القدماء : « إن الله لا يعرف إلا نفسه » . ثم يصف هذا القسم لكلام القدماء أي اليونان بأنه جهل وصرف تأويل لكلامهم ، فهم برآء مما تقوّله هؤلاء عليهم [١].

وبعد أن اجتهد في شرح هذه العبارة المأثورة عن الفلاسفة القدماء على أربعة أوجه ، وكل وجه ينتهي الى هذا المبدأ : « إذا علم نفسه فقد علم كل وجود تابع لوجوده » [٢] ، أخذ في التدليل على أن الفلاسفة أرادوا إذاً بذلك أن الله عالم بكل شيء ، إذ هو عقل مجرد عن المادة التي تمنعنا من إدراك الأشياء [٣] ، وأن القول بغير ذلك يكون تأويلاً سيئاً لعبارة الفلاسفة السابق ذكرها . ولكن ينتهي من هذا ، كما يعني بإبطال رأي القائلين بأن الله لا يعلم إلا ذاته ، والآخرين الذين ذهبوا الى أنه وإن كان يعلم الأشياء كلها ولكن ذلك على نحو كلي لا جزئي مفصل [٤] ثم يستند في مناقشة هذه المذاهب الى ما جاء في القرآن من آيات تثبت علم الله الشامل لكل شيء : الكبير والصغير والكلي والجزئي ، مؤكداً أن ما جاء في هذا من أقوال الفلاسفة المتقدمين يطابق ما وردت به الشريعة [٥] .

[illegible] اليونان المسلمين

وهنا نرى من الخير أن نكتفي بالاشارة الى ما حاوله في المسألة السابقة مسألة علم الله ، من أن الفلاسفة اليونان كانوا يرون أن الله يعلم بكل شيء ، وأن ما قيل عنهم غير ذلك ليس منشأه إلا من الجهل وعدم حذق علومهم وفهم كلامهم . ثم نشير الى ما ذكره في أثناء عرض رأيه ، أو بالأحرى الرأي الذي ارتضاه من الفارابي وابن سينا في مسألة وجود العالم عن الله ، من قوله : « فهذا مذهب أرسطوطاليس وأفلاطون وسقراط ، وغيرهم من مشاهير الفلاسفة وزعمائهم القائلين بالتوحيد » [٦] كما يؤكد ، عند الكلام على خلود النفس وعدم فنائها ، أن هذا مذهب سقراط وأرسطو وأفلاطون وسائر زعماء الفلاسفة [٧] .

ولسنا هنا في مقام بيان غلطته في نسبته القول بالتوحيد وعلم الله الشامل لكل شيء الى سقراط وأفلاطون وأرسطوطاليس ، فلعل له عذره في أنه حكم بذلك بحسب الذي وصله منهم . ولكنا نشير الى أنه يرى بذلك أن يجعل الفلاسفة القدامى وآراءهم محببة الى المسلمين ، لأنها كما زعم لا تختلف عما جاء في الشريعة .

للبحث بقية

(١) كتاب الحقائق ص ٥٠ (٢) الكتاب نفسه ص ٥١ ـ ٥٤ (٣) الكتاب نفسه ص ٥٥ (٤) الكتاب نفسه ص ٥٨ ـ ٦٠ (٥) الكتاب نفسه ص ٦٠ (٦) الكتاب نفسه ص ١٤ (٧) الكتاب نفسه ص ٦١